الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان:
محاولات عابرة أم إنجازات ثابتة؟

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ *

موضوع قديم جديد

قد يتساءل بعضنا ما الفائدة من الكتابة عن الحوار الإسلاميّ المسيحيّ في لبنان مرّةً جديدة. ألم يُعالَج هذا الموضوع بما فيه الكفاية؟ ألاّ يُخشى فيه الاجترار حتّى الابتذال؟ وقد يرى المتشائمون أنّ كثرة الكلام على أيّ مسألة إنّما يعني وجود مشكلة، وكثرة التغنّي بالحوار بين المسيحيّين والمسلمين قد تخفي في الحقيقة استمرار وجود الخلاف، من باب القول بأنّ الإشادة المفرطة بالمثاليّات إن هي إلاّ الإقرار الضمنيّ بالسلبيّات.

بيد أنّ المواقف المشكّكة في هذا الميدان غير مقبولة على الإطلاق. وكلّ خطوة إيجابيّة، مهما كانت متواضعة، هي مساهمة في بناء قد يطول تشييده ولكنّه آخذٌ في الصعود لا محال. ولئن بدت مسيرتنا في كلّ حوار تتعثّر أحيانًا، إلاّ أنّها تنطلق بنا إلى الأمام وإلى فوق، على نحو ما تعرّج السلّم الحلزونيّة، فقد يخيّل إلى الصاعد فيها أنّه يسير القهقرى في حين يدور فقط وهو يترقّى من حيث لا يدري.

لقد كثر الكلام في لبنان إبّان الأشهر المنصرمة حول الحوار بين أبنائه

(*) مدير مجلّة المشرق ودار المشرق.

المسلمين والمسيحيّين. فأقيمت الندوات وأُلقيت المحاضرات، وأُعلنت التصريحات ونشرت المقالات بكثافة لم يشهد لها لبنان نظيرًا في تاريخه القديم والحديث. وإنّ هذه الظاهرة تلفت الأنظار ولا يمكن تجاهلها، لا سيّما أنّها وليدة تمخّضات طويلة تتجذّر في تاريخ البلاد البعيد وقد اختمرت طوال الحرب الدامية التي هزّت كيانها على مرّ نحو ستّة عشر عامًا.

والجدير بالملاحظة في تلك الظاهرة، والمشجّع على التوقّف عندها، أنّ الكلام على هذا الحوار (إن لم نقل هذا الحوار نفسه) هو في كثير من جوانبه جديد على ألسن الفرقاء اللبنانيّين. لم يُعهد قبل ذلك أن عولج الموضوع عندهم بمثل ما يعالَج اليوم من جرأة وصراحة، في عمق وتفصيل وشمول، علمًا أنّ الجانب المسيحيّ وجد بين يديه منذ منتصف الستّينيّات، مع انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وثائق رسميّة كان بوسعه الاستناد إليها، ولكنّه لم يعمل الكثير فعلاً لتطبيقها[1].

أمّا خطّة دراستنا فتقوامها عمليّتان. الأُولى رَصْد لِمَا ظهر على الساحة اللبنانيّة من أحداث تهمّ موضوعنا، بين ندوات فكريّة ومحاضرات، وكتب ومقالات في الصحف، وتصريحات صدرت لمناسبة أعياد أو زيارات رسميّة. وقد قصرنا المسح على الأشهر الثلاثة الأُولى من السنة الحاضرة (١٩٩٣) متجاوزينها قليلاً في التقديم أو التأخير، بحيث شملت المدّة المعيّنة نحو مائة يوم.

والعمليّة الثانية هي تحليل للأحداث والبيانات المحصاة مع محاولة لاستخلاص دلالاتها وتوجّهاتها، بغيةَ الخلوص إلى استشراق العِبَر.

---

(١) أطلب، من الوثائق المجمعيّة، **البيان في علاقة الكنيسة مع الديانات غير المسيحيّة** (١٩٦٥) و**البيان في الحرّيّة الدينيّة** (١٩٦٥). ومن المراجع الأخرى: **توجيهات في سبيل الحوار بين المسيحيّين والمسلمين** (تعريب المطران يوحنّا منصور، منشورات المكتبة البولسيّة، بيروت، ١٩٨٦)، **ووثائق عصريّة في سبيل الحوار بين المسيحيّين والمسلمين** (تعريب منشورات المكتبة البولسيّة، ١٩٩٢)، **وحوار وبشارة. تأمّلات وتوجيهات في شأن الحوار بين الأديان...** (تعريب منشورات المكتبة البولسيّة، ١٩٩٣). والكتابان الأخيران هما موضوع تعريف في الصفحات الأخيرة من عدد المشرق هذا.

١ ـ أقوال وأفعال

آ ـ **المحاضرات والندوات:** تعدّدت الدعوات إلى حضور الأحاديث واللقاءات الفكريّة حول موضوع الحوار الإسلاميّ المسيحيّ بحيث ساهم أغلبيّة المفكّرين البارزين من كِلا الطرفَين في إحياء حلقة من تلك الحلقات.

وأوّل ما نذكره لقاء نظّمه «معهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة» التابع لجامعة القدّيس يوسف ـ بيروت ـ يوم ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٢، استمع فيه الجمهور إلى محاضرَين علمَين هما سماحة قاضي صيدا الجعفريّ السيّد محمّد حسن الأمين وسيادة المطران غي بولس نجيم، النائب البطريركيّ الماروني، عولج فيه **موضوع المجمع الرعويّ الخاصّ بلبنان وما ينتظر منه المسيحيّون والمسلمون.** وممّا ركّز عليه سماحة الشيخ أنّ الحوار الحقّ الواجب يبدأ بأن يستمع الواحد إلى الآخر يقول عن نفسه ومعتقداته ما هي في رأيه هو، لا أن ينقل له عن ذاته ما يراه هو أنّه عليه. وهذا كلام قلّ سماعه قبلاً لا سيّما من أفواه رجال دين أيًّا كان انتماؤهم.

وفي الثامن من كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ ألقى الأستاذ بشير العرف، صاحب جريدة **المنار** وعضو المجلس الأعلى العالميّ للإعلام الإسلاميّ محاضرة موضوعها **التعاطف بين المسلمين والمسيحيّين ضرورة دينيّة حضاريّة.** فذكّر أوّلاً، مستنداً إلى الكثير من الوقائع التاريخيّة، ما كان من تعاطف عميق بين المسلمين والمسيحيّين منذ عهد الرسول حتّى أيّامنا، وأورد عددًا من الآيات القرآنيّة تدعو إلى حسن المودّة بين الأسرتَين، ثمّ خلُص إلى عصرنا الحاضر داعيًا إلى تشديد التعاون بين الديانتَين لإقامة نظام عالميّ جديد عادل ممّا لا يمكن أن يقوم بمعزل عن الله تعالى[1].

وبدءًا من الثامن من كانون الثاني عينه وعلى امتداد أسبوع، انعقد في مدينة جبيل، بمنزل مؤسّس «الملتقى الثقافيّ» الدكتور جورج أنطونيوس طربيه، سلسلة لقاءات حول موضوع **آفاق الحوار المسيحيّ الإسلاميّ في لبنان.** وكان

(١) أطلب جريدة النهار، بتاريخ ١٩٩٣/١/٩، صفحة ١٣.

أبرز المتدين سماحة الشيخ غسّان اللقّيس إمام المسلمين في جبيل، وسيادة المطران جورج خضر متروبوليت جبل لبنان للروم الأرثوذكس. فممّا جاء على لسان الشيخ اللقّيس أنّ موضوع الحوار الإسلاميّ المسيحيّ مهمّ شائق يجب أن نعيره الكثير من الجدّيّة للتوصّل إلى العيش المشترك، علمًا أنّ التلاقي على صعيد العقيدة صعب بسبب مبدأي التثليث والتوحيد. إلاّ أنّه لا بُدّ من تربية النشء على الحبّ لا الحقد، ولا يتمّ هذا إلاّ بتعليم الفريقَين أمور كلّ من ديانتيهما.

أمّا المطران خضر فبدأ بتحديد معنى الحوار، وقوامه أن يقبل كلّ واحد أن يسائله الآخر جوهريًّا، أي أن يهزّ قناعاته. فمَن كانت كلّ قناعاته صلبة نهائيّة ليس بمُحاور، بل إنّه مبشّر وداعية. ورفض أن يرى نفسه معنيًّا «بالنصارى» المذكورين في القرآن الكريم، فهم شِيَعٌ المسيحيّة منها براء. لذا فمَن أراد أن يعرف المسيحيّة عليه أن يفهمها من خلال الإنجيل لا من خلال ما يقول القرآن عن «النصارى». ومن جميل ما قال عن التقارب المسيحيّ الإسلاميّ في العمق أنّ المسلمين يقولون: «حارة بلا نصارى خسارة»، كما أنّ المسيحيّين واثقون أنّ المسلم اللبنانيّ هو الحركة التي تساعد العربيّ على الانفتاح[1].

وفي الثالث عشر من كانون الثاني/يناير، جرت في ثلاثة أماكن مختلفة من الأراضي اللبنانيّة ثلاثة لقاءات فكريّة تمتّ إلى موضوعنا:

- في بيروت، وبدعوة من كلّيّة بيروت الجامعيّة، حاضر العلاّمة السيّد محمّد حسين فضل الله، وكان حديثه بعنوان **تأمّلات في الحوار الإسلاميّ المسيحيّ ودور الطالب**. وقد شدّد على نقاط التقاء الديانتَين ونددّ بالنظام الطائفيّ الذي فُرض على الجميع فرضًا، إذ الغبن في لبنان مشترك بين المسيحيّين والمسلمين. ودعا إلى استمرار الحوار «لتكون حياتنا أرحب»[2].

- وبدعوة من فرع كلّيّة بيروت الجامعيّة في جبيل، جرت ندوة اشترك فيها المطرانان جورج خضر، وبشارة الراعي رئيس أساقفة جبيل على الموارنة، والدكتور جورج صبرا الأستاذ في كلّيّة اللاهوت للشرق الأدنى. وكان اللقاء بعنوان

(١) أطلب النهار، ١٩٩٣/١/٢٢، صفحة ١٤ و١٩٩٣/١/٢٥، ص ١٢.
(٢) النهار ١٩٩٣/١/١٤، ص ١٥.

المسيحيّون وشهادتهم في لبنان. وقد أجمع المتكلّمون على ضرورة شهادة المحبّة وعمل الكنيسة مع المواطنين من غير أبنائها لإعادة لبنان إلى دعوته التاريخيّة فيظلّ رسالة للشرق والغرب[1].

- وفي ثانويّة حلبا الرسميّة - في عكّار - عقدت لجنة التفاعل المسيحيّ الإسلاميّ ندوة عن القيم المشتركة في المسيحيّة والإسلام، ساهم فيها كلّ من المفتي الجعفريّ الممتاز الشيخ عبد الأمير قبلان، والمطران إلياس نجمه راعي إبرشيّة طرابلس للروم الكاثوليك، والمطران بولس بندلي راعي إبرشيّة عكّار للروم الأرثوذكس، ونائب رئيس المجلس الإسلاميّ لأوقاف عكّار الشيخ عمر الكيلاني، والشيخ خلدون عريمط رئيس دائرة الأوقاف الإسلاميّة في عكّار، والآباتي الياس النجّار النائب العامّ لإبرشيّة طرابلس المارونيّة في عكّار، ونقيب محامي الشمال السابق الأستاذ حسن المرعبي. وقد أوجز الدكتور سليم الضاهر، مدير الندوة، ما يصبو إليه اللقاء فقال: «طموحنا أن يُبنى لبنان الجديد على أساس القيَم المشتركة الخُلقيّة والوطنيّة والإنسانيّة الموحّدة والموحّدة وفي مقدّمتها حقوق الإنسان والحرّيّة والعيش المشترك والعدالة والسلام والديمقراطيّة والمساواة». وشدّد المحاضرون على تلك النواحي، مؤكّدين، إلى ذلك، أنّ الإنسان هو القيمة المشتركة بين الإسلام والمسيحيّة، فلا بُدّ من العمل معًا في سبيله على نحو ما طالب بذلك المجمع الفاتيكانيّ الثاني، والبابا بولس السادس في رسالته العامّة عن ترقّي الشعوب، والقرآن الكريم. ونوّه الجميع بضرورة النظر إلى نقاط التلاقي والتشابه في الديانتَين مع نبذ التعصّب الذي هو على حدّ قول المطران نجمه آفة الدين، فإنّ «المتعصّب هو الإنسان الضعيف والخاطئ، وإنّ الذي لا يزال حتّى اليوم يجترّ عُقَد التعصّب الدينيّ، مسيحيًّا أكان أم مسلمًا، تجاوزه موكب التاريخ وتركه على قارعة الطريق أعمى». ومثله قال المفتي قبلان إذ أعلن أنّ «لا المسيحيّة ضدّ الإسلام ولا الإسلام ضدّ المسيحيّة. بل هما حلقتان في سلسلة إلهيّة واحدة. وكلّ مَن يفرّق بينهما هو عدوّ لعيسى وعدوّ لمحمّد وعدوّ لله»[2].

---

(١) النهار ١٥/١/١٩٩٣، ص ١٢.

(٢) النهار ١٤/١/١٩٩٣، ص ١٤.

وعاد المطران إلياس نجمه إلى الكلام عن التلاقي الروحيّ والاجتماعيّ بين المسيحيّة والإسلام وذلك في جبيل، بكليّة الحقوق التابعة لجامعة الروح القدس وبتاريخ ١٨/٢/١٩٩٣. وأشار إلى أنّ الحوار اللاهوتيّ بدأ بين المسيحيّة والإسلام منذ الفتح العربيّ وازدهر كثيرًا في العصر العبّاسيّ، ولكنّه اجتاز قرونًا من الجمود الفكريّ وحلّ محلّه التجاهل والتنابذ والتكاره والصراعات الدمويّة، ممّا باعد بين الملّتين الموحّدتين، وعاد فبرز في القرن العشرين. وذكر جهود منظّمي اللقاءات الكثيرة في الغرب والشرق بين المفكّرين المسيحيّين والمسلمين، وأضاف أنّ أرض لبنان هي أرض مميّزة لتلاقي قيم السماء في حوار أبناء الله جميعًا[1].

وختامًا لسلسلة الندوات والحلقات نشير إلى لقاء آخر حول موضوع «الحوار الإسلاميّ المسيحيّ» جرى بدعوة من «حوار الاثنين»[2] تكلّم فيه كلّ من الأستاذ كابي حبيب الأمين العامّ لمجلس كنائس الشرق الأوسط، والدكتور سليم اليافي والعلاّمة السيّد هاني فحص والأستاذ فيصل طبّارة والدكتور حسين الفوتلي. وما لفت النظر في هذا اللقاء أنّه وُزّع على الحضور كتاب بعنوان من أجل حوار إسلاميّ مسيحيّ ـ موقف المسيحيّة من الإسلام كما حدّده الڤاتيكان. وهو تعريب لإحدى الوثائق الڤاتيكانيّة الصادرة منذ ما يزيد عن ربع قرن. أمّا معرّبو الكتاب والمشرفون على توزيعه فهم الدكتور سليم اليافي ـ وهو الأمين العامّ المساعد السابق لجامعة الدول العربيّة ـ والأستاذ أحمد طبّارة ـ مدير «حوار الاثنين» ـ وآخرون من أصدقائهم المسلمين. ولا حاجة للتعليق على مثل هذه البادرة وما تنمّ عنه من انفتاح.

ونلحق بهذا الخبر «الخياتيّ» خبرًا آخر شبيه به، هو المحاضرة التي ألقاها المحامي عبد اللطيف فاخوري في غاية آذار/مارس بمقرّ المركز الثقافيّ الإسلاميّ ـ بيروت ـ حول موضوع يمتّ إلى واقع الحياة، وهو بعنوان: «وحدة المسلمين والمسيحيّين البيارنة». وقسّم المحاضرة إلى ثلاثة محاور: أوّلها التضامن السياسيّ كما بدا من محطّات في تاريخ المدينة كان للمسيحيّين والمسلمين فيها رأي واحد

(١) النهار ١٩/٢/١٩٩٣، ص ١٤.
(٢) أطلب النهار ٢١/٢/١٩٩٣، ص ١٣.

(دفاع الأوزاعي عن المسيحيّين، ودفاع المسيحيّين عن مقام الإمام لمّا أراد الصليبيّون هدمه...). والمحور الثاني هو التكامل الاجتماعيّ والاقتصاديّ (كمثل تعاون أبناء الديانتين في بناء دور العبادة، والتبرّع للفقراء والمعوزين دون تمييز). والمحور الثالث هو التوافق الفكريّ الثقافيّ، ختمه المحاضر بذكر موّال طريف نظمه سنة ١٨٣٤ مفتي بيروت الشيخ أحمد الأغرّ:

لم أدرِ كيف وصولي للجميل يا ناس　　أأصحب القسّ والخوري أم الشمّاس

أم ألزم الدير حتّى يحضر القدّاس　　عسى بصدق اعترافي أُمنح القربان

أم أنتظر... عيد مار الياس[1]

ب ـ كتب ومقالات: لا شكّ أنّ المحاضرات والندوات هي أكثر ما يلفت الأنظار عند الخاصّة والعامّة على السواء، لذا تعدّدت وتنوّعت. إلاّ أنّ الساحة لم تخلُ من محاولات أُخرى شائقة تساهم في إقامة الحوار، كالكتب والمقالات في الصحف.

فمن المقالات ما أصدره القاضي والنائب السابق عن المقعد السنّيّ في الشوف، الأستاذ عبده عويدات، في صحيفة النهار بتاريخ ١٩٩٢/١٢/٣١ (ص ٤). عنوان المقال: **عبرة الذكرى... من الميلاد إلى المولد.** ومن جميل ما جاء في النصّ أنّ «المسيحيّة ليست طائفة، والإسلام ليس بطائفة. إنّما المسيحيّة رسالة، والإسلام رسالة. وكلتا الرسالتين دعوة واحدة لوحدة الخلق من وحدة الخالق التي ترفع من شأن الإنسان في نفسه وفي مجتمعه (...) وهذا الحرص قائم على إعلاء كلمة الحقّ ونشر العدل الإلهيّ في الدنيا بجميع مفاهيمه وتحقيق مبدأ المساواة بين البشر في مختلف نواحي الحياة». ويضيف يقول، ونعمّ القول: «لقد حرص التنزيل على أن تتوم أوثق العلاقات وأمتنها وأجدى التعاون بين الديانتين **الشقيقتين الإسلام والمسيحيّة والابتعاد بهما عن كلّ ما يؤدّي إلى مصادرة الرأي في مجالات العقيدة**»[2].

---

(١) النهار ١٩٩٣/٤/١، ص ١٢.

(٢) التشديد هو بقلمنا.

وثمّة مقالة أُخرى لفتت انتباه الجميع نشرها العلاّمة السيّد محمّد حسين فضل الله في صحيفة **النهار** (١٩٩٣/١/٢٧) وعنوانها **تأمّلات في الحوار الإسلاميّ ـ المسيحيّ**. ومن أهمّ ما جاء في الحديث: لماذا الحوار، والحوار الإسلاميّ المسيحيّ بالذات؟ لأنّه لن نستطيع أن نهرب من الآخر. إنّه في داخلنا، في داخل أرضنا، في داخل قضايانا. وكما لا يمكن أن نهرب من الآخر، فلا يمكن أن نهرب من التعدّديّة، وهي غنى إذ تُنتج إنسانًا واحدًا متعدّد الخصائص. لذا فلا خوف من الحوار على الرغم من أنّه «يفضح» غرورنا. لا بل لا بُدّ من الحوار لأنّه يضيء الكثير من المناطق الخفيّة في داخلنا وبذلك يمكن أن يزيل الكثير من المخاوف في أنفسنا على حدّ ما جاء في كلمة للنبيّ العربيّ: «لو تكاشفتم لَما تدافنتم». وبالإضافة إلى هذا المقال، فللعلاّمة فضل الله خطب كثيرة يدعو فيها دومًا إلى الحوار والتقارب والعمل المشترك.

وإلى جانب المقالات، فثمّة بعض **الكُتُب**. نشير إلى اثنين منها ذكرتهما الصحف، عالجا قضيّة اللقاء الإسلاميّ المسيحيّ وإن على نحو غير مباشر: أوّلها رواية بالإنكليزيّة ألّفها الأب أنطوان الجميّل، مدير المركز الكاثوليكيّ للإعلام، بعنوان **هجمت الذئاب على القطيع**. وهي من الواقع اللبنانيّ في أثناء الحرب الأخيرة، قوامها أنّ شابًّا مسيحيًّا خُطف فتضافر الجهود لوجوده ويسعى أصحاب الإرادات الطيّبة من رؤساء مدنيّين ودينيّين من مختلف المذاهب، ولكن دون جدوى. ويساهم أيضًا في البحث ليلى الفتاة المسلمة صديقة خطّيبة الشابّ. وهدف القصّة هو إظهار الوجه الإيجابيّ في الحرب من تعايش بين اللبنانيّين مسيحيّين ومسلمين وتعاون رجال الدين وتضامن الجماعات في ساعات الضيق.

والكتاب الثاني هو مؤلَّف ليس بجديد، إلاّ أنّه عاد إلى الواجهة على أثر محاضرة ألقتها الأديبة السيّدة خديجة زعزع خالد عن **السفير اللبنانيّ نصري سلهب وكتابه «في خطى محمّد»**[1]. ظهر هذا الكتاب بين منشورات المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت) سنة ١٩٧٠ وجاءت المحاضرة تبرز أهمّ ما ورد فيه وهو

(١) راجع النهار ١٩٩٣/١/٢٨، ص ١٤.

يصبّ في خانة الحوار الجريء الهادئ الداعي إلى التسامح والاحترام المتبادل والتقدير العميق. ومن جميل ما ورد في كتاب سلهب أنّه ذكر دعوة المسيح إلى التقرّب من كلّ مَن يختلف عنّا. فلمّا كان يسوع يلقي موعظة على الجموع قيل له: «ها أمّك وإخوتك في الخارج يطلبونك»، فأجابهم قال: «مَن أمّي وإخوتي؟» وأجال نظره في المتحلّقين حوله وقال: «ها أمّي وإخوتي، فإنّ مَن يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي».

واغتنمت المحاضِرة الفرصة فدعت المسيحيّين والمسلمين في لبنان إلى أن يتزوّدوا المعلومات كلٌّ جانب منهم عن الجانب الآخر، ليتعارفوا فيتحابّوا: «فمن حقّ اللبناني أن تتجمّع له المعلومات عن العقيدة والدين لدى مَن يجاوره ويحاوره ويشاركه العيش في وطنه ويقاسمه مسؤوليّة المحافظة على كيانه». وأضافت تقول: «إنّني أرفع صوتي عاليًا وأناشد بكلّ محبّة العلماء والدعاة في المساجد، والرهبان في الكنائس، أن يخاطبوا العقل لا الغرائز»، ذلك بأنّه مضى على المسيحيّ والمسلم زمن طويل «يتعاملان مجاملةً وترقيعًا لأنّ كلاً منهما يتهيّب الآخر ويخشاه» في حين أنّ «الدين ليس أداة تفريق وتمزيق واقتتال، بل هو باعث طاقات الإنسان، ومحرّك قواه وموجّهٌ للبناء والعطاء والتفاهم والتعاون والمحبّة والسلام».

ج ـ **مناسبات وسمِيّة**: نتوقّف في هذا المجال عند ظاهرتَين اثنتَين: أُولاهما الخطب التي أُلقيت في مناسبة الصوم، والثانية التصريحات التي واكبت زيارة بعض كبار رجال الدين المسيحيّ إلى لبنان.

أمّا **الصوم** فكان له في هذه السنة أهمّيّة كبيرة في لبنان، إذ شاءت المصادفة الجميلة، لا بل العناية الإلهيّة في معتقد الكثيرين، أن يتزامن صوم المسيحيّين الكبير وصوم رمضان المبارك، فرأى الجميع في هذه المناسبة علامة تدعو إلى مزيد من التقارب. ومن طريف ما لاحظناه أنّ بعض محطّات التلفزة نفسها كانت تبثّ بين برامجها، حتّى التي لا علاقة لها بالدين، شعارات تهنّئ المؤمنين بصومهم. ومن حفلات الإفطار التي لفتت الأنظار تلك التي أقامها المجلس العامّ الماروني يوم ٣/١٦ في كسروان، «معقل» المارونيّة التي طالما نُعتت في السنوات الأخيرة بالانعزاليّة والتزمّت. وحضر الحفل عدد وافر من الشخصيّات الدينيّة

والمدنيّة من مسيحيّين ومسلمين. وممّا قاله المهندس ريمون روفايل، رئيس المجلس العامّ الماروني، في خطابه: «يقيم المجلس (...) مأدبة الإفطار الرمضانيّة وهو مصمّم على أن يجعلها في ثوابت نهجه الوطنيّ التوحيديّ. فالمجلس يؤمن بأنّ لبنان، الذي هو وطن نهائيّ لكلّ أبنائه، لا يقوى ولا يزدهر ولا يستقرّ فيه أمن إلاّ بتناغم بنيه وتوطيد وحدتهم الوطنيّة. ويؤمن كذلك (...) بأنّ المحنة التي ضربت لبنان ودمّرت فيه ما دمّرت، قد أصاب ضررُها الحجر والبشر، وأنّ إعادة بناء النفوس لها الأفضليّة على إعادة البناء الأخرى. فالوطن إنسان قبل أن يكون أرضًا وحجرًا»[1].

ولم تمضِ أيّام معدودة على هذا الخطاب حتّى كانت خطبة خطيرة ألقاها يوم ٢٢ آذار، ولمناسبة حلول عيد الفطر السعيد، سماحة القائم مقام مفتي الجمهوريّة الشيخ محمّد رشيد قبّاني، ركّز فيها شديد التركيز على ضرورة العيش المشترك، وكان لتلك الخطبة أجمل الوقع عند جميع المواطنين.

أمّا **التصريحات** التي أُدلي بها لدى زيارة رجال دين مسيحيّين جاؤوا من الغرب في مهمّات رسميّة، فنشير منها إلى ما ورد لدى زيارة **الكردينال أكيله سلفستريني** إلى جنوب لبنان يوم ١٠ آذار/مارس. فلمّا زار الحبرُ المسيحيّ دار الإفتاء في صيدا، توجّه إليه سماحة الشيخ محمّد سليم جلال الدين بهذا الكلام: «يسعدني أن أصرّح باعتزاز أنّ صيدا والجنوب يمتازان بمجتمعهما الوطنيّ الذي يضمّ عائلات من الطائفتين المسيحيّة والإسلاميّة وهم يعيشون كأنّهم عائلة واحدة تسود أفرادها المحبّة والتعاون المستمدّ من أخلاق الأديان السماويّة والمبادئ الإنسانيّة والرابطة الوطنيّة». وأضاف: «نشكركم على زيارتكم ونُحمّلكم نقل تحيّات هذه المدينة إلى قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني»[2]. وجاء في ردّ الكردينال: «إنّي متأثّر جدًّا لهذا اللقاء الجميل الذي يعبّر لي عن الأخوّة والتعايش الإسلاميّ ـ المسيحيّ (...). أشكر سماحته للكلام الذي قاله والآمال التي علّقها على قداسة البابا، وهذا الاحترام وهذا التقدير منه يبادلهما إيّاه قداسة البابا باحترام

(١) النهار ١٩٩٣/٣/١٧، ص ٣.
(٢) النهار ١٩٩٣/٣/١١، ص ٤.

الدين الإسلاميّ وكلّ المؤمنين بالإسلام إخوتي، وأنا أؤمن بأنّ الأمور التي تجمعنا هي أكثر بكثير من التي تفرّقنا: عبادة الله الواحد الرحيم، احترام إرادة الله تعالى، والإرادة الصالحة في السعي وراء العدالة والسلام، ومحبّة الآخرين بأخوّة، واحترام كلّ إنسان»[1].

وثمّة زيارة ثانية كانت سببًا لتصريحات بالغة الأهمّيّة في هذا الشأن، هي **زيارة أمين سرّ دولة الڤاتيكان للعلاقات مع الدول** (أو وزير خارجيّتها)، المطران جان لُوي تُوران، الذي قال في ما قال: «لا يمكن العيش في لبنان من دون حوار مسيحيّ - إسلاميّ». وأعلن بعد مقابلته سماحة الشيخ قبّاني وسماحة الشيخ محمّد مهدي شمس الدين نائب المجلس الشيعيّ الأعلى: «في الزيارتَين تبادلت اقتناعات تتّصل بما يوحّدنا، وهو أكثر بكثير ممّا يقسّمنا. ولدينا ثلاثة مجالات يمكن التعاون فيها جنبًا إلى جنب: الأوّل كوننا أناسًا يصلّون، والثاني كوننا ندافع عن الأسرة، والثالث كوننا نعمل معًا، لأنّ العمل هو التعبير الأسمى للتضامن الإنسانيّ الذي يجمع البشر من مختلف المعتقدات والمذاهب والميول. وأعتقد أنّه إذا توحّد المسيحيّون والمسلمون في المجالات الثلاثة التي ذكرتها: الدين والأسرة والعمل، ففي إمكانهم التعاون من أجل التجديد في لبنان، في وجهه الجديد وفي الوفاء لتاريخه وثقافته التعدّديّة التي ميّزته دائمًا».

وفي المقابل قال الشيخ شمس الدين ما يكمّل كلامَ تُوران، شاكرًا البابا على عنايته بلبنان ومؤكّدًا أنّ هذا البلد اجتاز محنته وهو يعاود تكوين مشروع مجتمع وطنيّ. وقال: «لا نتطلّع أبدًا إلى دولة يتغلّب فيها فريق على آخر بل نؤكّد على المشاركة الكاملة من الجميع والمساواة الكاملة بين الجميع، ومن دون هذا لا يمكن أن يكون للبنان أيّ معنى»[2].

---

(١) النهار ١٩٩٣/٣/١١، ص ٤.

(٢) النهار ١٩٩٣/٣/٣٠، ص ٤. وفي هذا الإطار لا بُدّ من التذكير بتصريح مماثل جاء بعد شهر من هذا التاريخ، على لسان رئيس الوزراء الثاني رفيق الحريري في أعقاب زيارته للڤاتيكان أواخر نيسان. فقد ردّ على بعض الهواجس التي طرحها البطريرك نصرالله بطرس صفير ومكسيموس حكيم حيال مستقبل المسيحيّين في لبنان، بقوله: «إنّ لبنان لا يُحكم بالعدد، وإنّما يحكم بالتوازن» (النهار ١٩٩٣/٤/٣٠، ص ١).

تلكُم بعض التصريحات، وهي غيض من فيض، ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر. وما زلنا كلَّ يوم نطّلع على مثيلاتها، كما أنّ المحاضرات والمقالات حول الموضوع ما زالت مستمرّة تشير إلى أنّ ثمّة تيارًا جارفًا لا مجال بعد اليوم إلى إيقافه، ممّا يبشّر بمستقبل يدعو إلى التفاؤل والارتياح.

ولا بُدَّ لنا الآن، بعد عرض الوقائع، من الانتقال إلى المرحلة الثانية واستجماع واستخلاص أهمّ التوجّهات التي ظهرت من خلال تلك الأحداث، فتنجلي الخيوط العريضة من لحمةٍ وسدًى، ممّا يساعد على إخراج صورة النسيج الجديد واضحةً مكتملة.

٢ ـ التوجُّهات الجديدة

ظاهرٌ من كلّ ما سبق أنّ هناك توجُّهات يتّفق عليها المسلمون والمسيحيّون اللبنانيّون في سعيهم الصريح المخلص إلى التلاقي. وإنّنا لنوجزها في بضع نقاط:

آ ـ لقد كُتب على المسلمين والمسيحيّين اللبنانيّين أن يعيشوا معًا في بقعة من شرق حوض البحر المتوسّط، بقعة صغيرة برقعتها ولكنّها كبيرة برسالتها.

ب ـ شاءت الظروف أن تُباعد الحرب اللبنانيّة بين مَن عاشوا معًا قرونًا طويلة، ولكنّ أبناء الوطن الواحد يشعرون الآن، أكثر منهم في أيّ وقت مضى، بضرورة التلاقي والحوار بكلّ ما في هاتين العبارتين من معنى. فالتلاقي لا يعني ملاقاة المجاملة: بل اجتماع المصارحة والتعارف في العمق. ولا ينبغي أن يكون الحوار من الآن وصاعدًا «حوار طرشان»، يلغي منه كلُّ واحد فرضَ رأيه على الآخر، بل يجب أن يستمع كلّ واحد إلى الآخر بعرض ما هو عليه كما يرى هو أنّه عليه. وهذا الحوار يفترض أيضًا الاحترام المتبادل لا سيّما أنّ أفراد الطرفَين هم جميعًا خليقة الله.

ج ـ ولأجل تثبيت أسس الحوار وتأمين دوامها، لا بُدَّ من تعليم أبناء الأجيال الصاعدة ما ينبغي لهم أن يعرفه بعضهم عن بعض (دور المدارس والتنشئة

الوطنيّة السليمة التي لا تضرب صفحًا عن التعدّديّة بل تحترمها وتبيّن مزاياها)[1].

د ـ الديانتان المسيحيّة والإسلاميّة مهدَّدتان بالخطر إن اعتُبِرتا طائفتَين (لأنّ الطائفة كثيرًا ما تسعى إلى الانغلاق والتعصّب الذميم الذي يصادر العقيدة) في حين أنهّما رسالتان، والرسالة تبغي الانفتاح الحقّ المبنيّ على المحبّة. ولبنان نفسه عليه تأدية رسالة، بل إنّه رسالة على حدّ ما قاله البابا يوحنّا بولس الثاني. «فإذا فسد الملح فبماذا يملَّح؟».

هـ ـ فَهِمَ الطرفان أنّه لا بُدَّ لهما من الانتقال من طور التعايش إلى طور العيش المشترك. فلا يكفي أن يعيش الواحد قرب الآخر وهو يكاد يجهله (المرء عدوّ ما يجهل)، بل ينبغي أن يعيش الواحد مع الآخر. وثمّة مرحلة تذهب إلى أبعد، فتجتاز من العيش المشترك إلى المشاركة في العيش بجميع أبعاده، أي إلى المشاركة في بنيان الحياة معًا.

و ـ المشاركة في العمل الواحد هي من الأهمّيّة بمكان. فمجالات العمل التي يدعو إليها الإسلام والمسيحيّة من أجل بناء الإنسان متعدّدة: التنمية الاقتصاديّة، الدّفاع عن حقوق المظلومين، السعي إلى السلام، التعليم والتربية، وما إلى ذلك. وما من شيء يقرّب الناس بعضهم من بعض مثل العمل المشترك، على حدّ ما جاء بقلم الكاتب الفرنسيّ الشهير أنطوان ده

---

(١) يطيب لنا هنا أن نذكر كتابًا صدر منذ أسابيع قليلة، نقلناه إلى العربيّة بعنوان مدخل إلى العقيدة المسيحيّة، وهو كتابة عن محاضرات ألقاها زميلنا اليسوعيّ الأب توماس ميشال على طلاّب كلّيّة الشريعة الإسلاميّة في أنقره بدعوة سمحاء من تلك الكلّيّة. كما نشير في هذا الإطار إلى ما يقوم به معهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة التابع لجامعة القدّيس يوسف (بيروت) من محاضرات ودروس يلقيها مسلمون ومسيحيّون للتعريف بمعتقداتهم، ومن أبحاث مشتركة كمثل كتاب طريقة التحليل البلاغيّ والتفسير. تحليلات نصوص من الكتاب المقدّس ومن الحديث النبويّ الشريف (دار المشرق، ١٩٩٣) الذي ألّفه معًا باحثون مسلمون ومسيحيّون. وكانت مقالتنا هذه قيد الطبع لمّا علمنا من الصحف (تاريخ ١٩٩٣/٥/٤) أنّ جامعة البلمند الأرثوذكسيّة في شمال لبنان قرّرت إنشاء معهد للدراسات الإسلاميّة المسيحيّة.

سانتيكْزُوبري: «إن أردت أن يتنابذوا ويتعادوا فارم لهم الحَبَّ، أمّا إن أردت أن تجعليهم يكبرون فدعهم يعملون معًا».

ز ـ لا شكّ أنّ هناك فوارق بين الديانتين، لا سيّما على صعيد العقيدة، ولكن لا داعي إلى التوقّف السلبيّ عندها أو عند أيّ ما يفرّق. فميادين التلاقي أكثر بكثير من ميادين التباعد. والمؤمن الحقّ لا يمكنه إلاّ أن يكون أخًا لكلّ مؤمن حقّ.

الخاتمة

أحببنا من خلال هذا الرصد أن نتبيّن حقيقة ما يجري الآن على الساحة اللبنانيّة في شأن التقارب الإسلاميّ المسيحيّ، ويخيّل إلينا أنّ المائة اليوم التي ركّزنا عليها هي أنموذج بليغ لحقيقة لا مفرّ منها: فالحوار الإسلاميّ المسيحيّ سائر، وإنّه في مسار سليم، وهذا لَمّا يدعو إلى التفاؤل. ويزداد تفاؤلنا إذا ما تذكّرنا أنّ هذا الحوار ينمّ بعد ستّة عشر عامًا من الاقتتال الأعمى العقيم. فما أعظم الفرق بين الأمس واليوم! ولقد حفظ اللبنانيّون أمثولة التاريخ ويبدو أنّهم استوعبوها واعتبروا. فعساهم يتابعون الطريق بجدّ وإيمان، ومهما تعثّرت الخطى واعوجّت المراقي، فمَن ابتغى النور والحقّ يعرف أنّه سينال المراد، لأنّ الله سبحانه نور وحقّ، والنور يهدي سواء السبيل، والحقّ يحرّر ويسمو.